القصص

من أساطير الإغريق

أجنحة ديدالوس

أول محاولة للطيران عرفها التاريخ

للأستاذ دريني خشبة

لم يكن في أثينا القديمة على ما اشتهرت به من روعة الفن وكثرة الفنانين، من هو أمهر من ديدالوس العظيم في نحت الدُّمَى وصناعة التماثيل، وهندسة المباني الضخمة. ولقد كان يتنقل بين المعاهد اليونانية، وخاصة بين إقريطش وقبرص وأثينا، لكثرة الدعوات التي كانت تصله من ملوكها، ليقوم على بناياتهم وليتعهد تماثيلهم، وليشرف بنفسه على هياكلهم، لِيقال في مواضع الفخر، إن هذا التمثال، أو تلك الدمية، أو هذه الزخرفة من عمل ديدالوس

واستفاضت شهرته، وذاع صيته، وملأ الخافقين اسمه، ولا سيما بعد إذ شاد اللابيرنث (التيه) لمينوس ملك إقريطش، واللابيرنث عمل من أجل الأعمال الهندسية القديمة، إن لم يكن أجلها جميعاً. ذلك أنه كان لمينوس وحش هائل مخرِّب يسمى (المينوطور)، نصفه الأسفل نصف عجل جسد، ونصفه الأعلى نصف رجل له أنياب الأسد، وغَدْرَةُ الذئب، وقوة التنين العظيم[1]

وكان لا ينفك يقتل كل من اقترب منه، ولو كان من خاصة الملك. فلما استطار شره، وعظمت بليته، دعا مينوس الملك، ديدالوس المهندس، ليشيد هذا البناء الرائع، ذا المنعرجات والحنيات، والشعاب المتداخلة، التي لا يستطيع أحد أن يفلت منها، إذا انفتل فيها. وقد بناه ديدالوس على شكل دائرة عظيمة يحيطها هذه الشعاب والمنعرجات، وفي وسطها فضاء فسيح يربض فيه المينوطور أو يركض

ولندع الآن ذاك المينوطور الرهيب جاثماً في اللابيرنث، لنرى ما كان من أمر ديدالوس بعد ذلك

ظل الناس يتحدثون عما وهب ديدالوس من عبقرية، وما أوتي من حذق ونبوغ، وظلوا يتهافتون على آياته الفنية التي كساها إلهامه ظلالاً كظلال السحر، وموهها بأمواه القداسة والخلود، حتى كبر الفتى پرْدِكس، ابن أخي ديدالوس؛ وكان شاباً ممتلىء الجسم، مفتول العضل، قوي الملاحظة، دقيق الفهم، سريع التصور؛ ما كاد يتتلمذ لعمه حتى بلغ شأوه، بل هو قد فاقه بمزج الشعر والموسيقى بفن الحفر والمثالة، ولاءم بين روحها جميعاً، فكان يبرز تحفه في مظهر دقيق وطراز أنيق؛ ثم هو يضفي عليها من شبابه الغض، وروحه المطربة الشاعرة، ظلال الحب، وسمات الفتنة، ويحرك فيها عواطف الآلهة!

ولهج الأثينيون باسم هذا الفنان الشاب، وتناسوا عمه الذي هو أستاذه وملهمه. وضاق ديدالوس بابن أخيه ذرعاً، وساءه أن تكسف شمسه الوضاءة المتلألئة، نجمه الذي لبث زماناً يسلسل نور الفن في أرجاء هيلاس

وما فتىء العم يحنق ويحنق، وما فتىء پردكس يسمو بفنه الى الذروة، حتى لسعت عقارب الغيرة قلب الشيخ الفنان، ونفثت فيه سمها، فلم يعد يطيق هذا الخصم الذي صنعه لنفسه بيديه، ولم يعد يحتمل أن يرى نفسه كاًّ مهملاً بجانب الفتى العبقري، فأقسم ليزيحنه من طريقه، ولو بتجريعه كأس المنون،

وزين له أن يحتال عليه، فيذهب وإياه الى شعاف جبل شاهق، ذي مهاو تنتهي الى اللج الجياش في اليم، حتى إذا كانا فوق القنة المشرفة على البحر المصطخب، نهز منه غِرة ودفع به الى الأعماق، حيث ينشق له قبر من الموت . . . والنسيان!

وأنفذها ديدالوس المسكين!

ولكن الآلهة كلها كانت تنظر، وتستعد للمعجزة!

---

(١) في الأسبوع المقبل نرى كيف يقتل الشاب تيذيوس هذا المينوطور الفظيع

وكيف ؟ !

لقد استجمع الشيخ كل قوته ، ووضع فى يديه كل مُنته ، ودفع بابن أخيه من فوق القنة ، فتردى الفتى على حدور الجبل ، حتى إذا كان بينه وبين الموت قاب قوسين ، هبطت منيرفا [1] سيدة الأولب ، وصاحبة أثينا ، من عليائها ، فأنقذت پردكس من قتلة محققة ، ثم نفثت فى أذنه نفثتين ، كان بهما فرخاً حزيناً من أفراخ القطا ، راح يرف فى السماء مدوماً فوق عمه ، حتى كاد يصعقه من حيرة وعجب ! !

وانقلب ديدالوس الى بيته أسوان أسفاً ، ووقر فى نفسه أن الآلهة التى سحرت پردكس لتنقذه من تدبيره السيء ، لابد أنها تترصده ، ولابد أنها ستأخذه بأوزاره فى القريب ، غير متجنية ولا ظالمة ؟

ثم مضت سنون ، وولد لديدالوس طفل جميل الصورة ، طلق المحيا ، مشرق الغُرّة ، سماه إيكاروس . ولكن الطفل لم يستطع أن يخفف من الروع الذى كان ينتاب أباه ، أو يذهب بسورة الهم التى كانت تجثم على قلبه ، وتثقل على نفسه ، كلما تصور الهامة المفزعة التى يضطرب بها نومه ، فتقض مضجعه وتزلزل كيانه .

لقد كانت القطاة تتمثل له كلما أغمض طرفه ، كأنها روح مَيت ترنّق على خصمها تكاد تصعقه . وازداد الشيخ خبالاً حينما ألحف عليه الأثينيون يسألونه عن پردكس أين قضى وأنّان ولى ! وأخذ النوغاء يلغطون ، وشرع الخاصة يتسقطون أخبار الفتى الفنان ، ودأبوا على عمه يسألونه عنه ، وهو يضلل بهم ويخترع لهم ، حتى أوجس أن ينكشف سره ، فينكل الناس به . فآثر الهجرة عن أثينا المحبوبة ، إلى صديقه مينوس ملك إقريطش ، مصطحباً معه ابنه الطفل إيكاروس

وتطامن الدهر ، وشب إيكاروس وترعرع ، وأخذ عن والده من الفن ما أخذ پردكس من قبل ، وحسب ديدالوس أن الزمان قد غفل عنه ، وأن أعين الآلهة قد غفت واستنامت ، وأن الأيام قد ابتلعت إثمه الكبير فى تضاعيفها القاتمة المظلمة ، فاستيقظ الغرور فى قلب الفنان الشيخ ، ولم يتقبل ما غمره به مينوس الملك من النعم بالشكر الواجب على لاجىء طريد مثله ، بل بطر واستكبر ، وكفر بأنعم مولاه وآلائه ، ومَدّ له هواه فولغ فى إناء الملك ، بعد أن اختلط بأهل بيته اختلاطاً شائناً أدّى إلى كثير من القيل والقال

وعلم الملك بما كان من خيانة ديدالوس فأمر بالقبض عليه ، واعتقاله فى إحدى غرف القصر حتى يُقضى فى شأنه ؛ فألقى به فى حجرة منفردة فى طرف القصر ، مشرفة على الماء ، متصلة بالسماء

وطالت عزلة الفنان الشيخ فى معتقله هذا ، وضاق ابنه بالحيز الضيق الذى يحبس أنفاس روحه ، ويحسر مرامى مقلتيه ، ويشيع الهم فى حنايا ضلوعه ، فقال لوالده وهو يحاوره : « أهكذا قضى علينا أن نموت هنا صبراً يا أبتاه ! » وكانت كلمات إيكاروس المبللة بالدموع تذهب كالصدى فى آذان الشيخ ، وكان الغلام يجتذب اللفظة المفردة من فم أبيه ، فما يكاد يفوز إلا بلا ... أو بنعم ...

وكانت للغرفة التى اعتقلا فيها شرفة صغيرة تطل على البحر الأبيض المتوسط ، وكان منظر السفائن الماخرة فى البحر كالأعلام ، والطير صافات من فوقها كأنها تسبح بدورها فى لج من زرقة السماء ، يثير فى نفس الفتى أحلاماً وأخيلة وأمنيات . وإنه لفى أصيل جميل يناجى الطبيعة من شرفة سجنه الصغيرة ، إذا به يذهب إلى والده مستبشراً متهللاً ، ويقول : « أبى ! أعجزنا عن أن نصنع لنا أجنحة كهذه الطير . فنفلت بها من هذا المكان الرهيب؟ . »

وكان الشيخ جالساً فى زاوية مظلمة من زوايا الغرفة يجتر أحزانه ، ويتغنى آلامه ، فلما سمع ما خاطبه ابنه به ، افتر فمه العجوز عن ابتسامة منقبضة مغضنة ، وشاعت فى أساريره بوارق أمل جديد !

وقال لابنه : « أجنحة ؟ وأنّى لنا بالريش يا إيكاروس ؟ »

فقال الولد : « لا عليك يا أبى ، إن غرفة الدجاج قريبة من هنا ! »

وعبس الفنان الشيخ ، وقال : « والحارس الفظ ؟ . . . »

فتضاحك إيكاروس قائلاً : « الحارس ! ؟ أمره أهون مما ترى . . . سنرشوه يا أبتاه ، فيحضر لنا ما نشاء من الريش ، وسنخدعه أننا صانعان له لباساً لا تحلم الملوك بمثله ! »

ولكن العبوسة التى رفت على جبين الشيخ أنشبت فيه جميع مخاليبها ، وقال : « دعنى أفكر يا بنى ، دعنى أفكر يا إيكاروس ... »

* * *

وهكذا كانت العبقرية البكر ، الكامنة فى هذا الفتى الصغير ،

(١) منيرفا هى بالاتا أثينا ، وقد خلقت شجرة الزيتون فملأت الأرض بركة . وكانت پردكس يصنع لها تماثيل رائعة ، وهى هنا تنقذه لترد له قليلا من جميله

لقاحاً بعيد الأثر فى عبقرية الشيخ الفانى المتهدم ، وهكذا بدأ الفنان الأكبر ، بانى اللابيرنث ، ومشيد هياكل الآلهة ، يفكر فى هذا المقترح الشارد الذى اقترحه عليه الفنان الصغير !

« أجنحة . . . دجاج . . . ريش . . . الحارس الفظ . . . مينوس . . . پردكس . . . فرخ القطا . . . الطير . . . إيكاروس ابني . . . ! » وهكذا انبطح الشيخ على وثيرته تتداعى هذه الخلجات فى رأسه الساخن المتأجج ، تذكى فيه الذكريات والمآسى !

واحتال الفتى على الحارس حتى حصل على مقادير هائلة من ريش البط والأوز والديكة ؛ وفكر الشيخ كيف يثبت الريش فى مكانه من عضد الجناح ، فادخر الشموع التى كانت تترك له يضيئها فى الليل ، ليتضاعف بلهيبها الخافت حزنه ؛ حتى إذا كان لديه قدر كبير منها ، عمد اليها فصهرها ، وثبت بها ماشاء من الريش ، وبذلك صنع زوجين من الأجنحة الكبيرة ، يكفى أحدها لحمل فيل !

وجلس يمحض ابنه النصح فقال :

« أى بني ! أى إيكاروس العزيز ! ستطير من هنا يا ولدى ! إلى أين ؟ لست أدرى ! ولكننا سنفلت من هذا السجن على كل حال ! وهأنذا قد صنعت الأجنحة التى تخيلها أملك الصغير الذى هو أكبر من جميع آمالى ! ولقد رأيت إلى كيف كنت أذيب الشمع قريباً من النار يا ولدى ، فأوصيك إذا طرنا ألاَّ تترك سمتى ، وأن تكون دائماً قريباً منى ، فانى أخشى إذا علوت علواً شاهقاً أن تصهر الشمس شمع جناحيك ، فتهوى فى البحر ، وتتردى فى أعماق الموت ! وكما أخشى عليك من العلو الشاهق ، فكذلك لا أرى لك أن تدنو من الماء ، فانه إن وصل إلى الشمع أيبسه ، ولم يعد يصلح لمهمة الطيران ، إذ يتساقط قطعة فقطعة ، ويتناثر الريش ، وتسقط ، إما فى البحر فتغرق ، وإما فى الأرض فيندق عنقك . فلا تنس يابني أن تتبعنى أبداً ، واحذر أن تعلو فتدنو من الشمس ، أو أن تسفل فيصيبك رذاذ الماء ورشاشه . إلىَّ ياولدى أثبت لك جناحيك ، ولنمض على بركة ز . . . ز . . . زيوس ! ! »

وتلجلج لسانه حين أراد أن ينطق باسم الآله الأكبر ، لأنه يثق أنه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وهو محيط بعباده ، لا ينسى أن ينتقم من الظالمين للمظلومين !

وانطلقا من الشرفة ، وألقيا على القصر ، وما أحاط به من حرس وعسس ، نظرات كلها نقمة وتغيظ . . .

وَمَرّا بشطوط كثيرة ومروج كبيرة ، وكان الصيادون والزراع والبحارون وأهل القرى كلما رأوا هذين الطائرين الكبيرين ، ذَوَى الهيئة الآدمية ، خرُّوا للأذقان سجدا ، يحسبون أنهما إلهان من آلهة السماء ، هبطا يباركان الناس والخلق ، فيهللون ويكبرون ! !

فهذا شيخ يطلب اليهما أن يباركا فى عقبه ويمدّا فى أجله ، وهذه شمطاء تدعو أن يَرُدّا عليها جمالها الضائع وشبابها الذاهب ، وتيك رؤوم تناجى ابنها فى قبره فتطلب إليهما أن يُنْفضاه من الثرى ! وهؤلاء فلاحون يصرخون أن يمنا عليهم فيخلصاهم من الفقر والتربة . . . . . .

وشاع الزهو فى أعطاف إيكاروس ، فكان يرتفع قليلا ، أو يهبط قليلا عن سمت أبيه ؛ ثم تشجع وتشجع ، وبهرته زرقة السماء وأديمها الصافى ، فجازف وارتفع ارتفاعاً شاهقاً ، ونسى وصية أبيه ، فعلا وذهب فى السماء صَعَداً ، وكان يغريه أن يصغر العالم الأرضى فى عينيه ، فيعلو ويعلو

وأسفاه ! ! لقد دنت ساعة الانتقام لك يا پردكس ! فلقد صَهَرت الشمس شمع الجناحين ، وهوى إيكاروس الى الأعماق !

ولما دنا من والده صرخ صرخة هائلة دوت فى أذن أبيه ، فتلفت الشيخ ليرى ولده يغوص فى اليم ، يبتلعه مرة ويلفظه أخرى !

فأسرع الوالد المسكين الى البحر ، وانتشل ولده من الماء جثة هامدة ! وكان هو بدوره قد أذاب الماء شمع جناحيه ، فعالج الموج معالجة ، وسبح بفلذة كبده الى جزيرة قريبة ، بلغها بعد جهد وعناء !

وجلس يبكى ولده . . .

ثم شق له قبراً صغيراً فى رمل الشاطىء ، وما كاد يُسرّه فيه ، حتى رأى قطاة حزينة تُحَوِّم فى السماء ، ثم تهبط قليلا قليلا ، حتى تكون بمقربة من القبر ، فتقف كاسفة مشجونة وتنظر الى الجثة والدموع تنهمل من عينيها .. عبرة ، فعبرة . .

ويفرغ الشيخ من مواراة ولده فى التراب ! وينتبه ! فيرى القطاة ! فينشج نشيجاً مؤلماً ، ويقول : « پردكس ! ! أتيت تبكى إيكاروس ! ! سامحنى يا پردكس ! »

فتزقو القطاة كأنها تنتحب ! ثم تدنو من القبر حتى تكون فوقه ، فتذرف عبرتين غاليتين ، وترف فى الهواء حتى تغيب عن عيني ديدالوس ! !

دريني خشبة